المتون اللّسانية في علم العربية

أ.د/ عبد الجليل مرتاض
جامعة تلمسان

قبل أن نتحدث عن المتون أو النظوم التعليمية مُمَثَّلة في هذه الكلمة في عالم العربية الشيخ المكودي، ارتأينا أن نمهّد بإشراقة خلفية للأسس والرواسب البعيدة لهذه المتون التي لم تنشأ في علم العربية طفرة واحدة، وبين عشية وضحاها.

ودون أن ندخل في متاهات تفاصيل هذه القضية وتأثير عوامل خارجية، لظهور الشعر التعليمي عند العرب، وخاصة من الهند، مثلما يشير غير واحد من الدارسين العرب الذين ربما يكتفون باستقاء معلوماتهم من مصادر غربية واستشراقية، دون أن يتمحصوا المسألة المطروحة من لبّها نفسه، أو كأن هذا اللب غير مقنع أو كافٍ لديهم.

وما نراه مبدئياً، ونطمئن إليه، أن عرب ما قبل الإسلام، لم يكن لديهم أصلاً مظاهر، ومؤسسات، ونظوم دراسية، في أي فن من الفنون، أو علم من العلوم حتى يتصدى أحدهم لنظم شيء من ذلك، أما التفكير في إقدام أحدهم على شعر تعليمي في الاكتساب اللغوي، فإنه الباطل بعينه.

إن الشعر التعليمي عند العرب، مع ذلك، نشأ نشأة طبيعية، ربما كان يُنْظَمُ فيه البيت والبيان أو بضعة أبيات، حسب ما تقضيه التبليغات العددية، أو الوصفية، أو على أنه سيبرز بروزاً واضحاً زهاء منتصف القرن الثاني الهجري، ليتناول قواعد اللغة العربية بصورة أكثر جلاء.

وحتى لا تظل كلمتنا هذه ضرباً من الوهم والخيال، فإني أحيل المتلقي على شعر الأعشى ليقف على قوله:

فـأرى مَنْ عَـصاك أصبـحَ مـخذو لاً، وكَعْبُ الذي يُطِيعُكَ عَـالِـي
أنـت خير من ألـفٍ مـن الـقـو مِ، إِذَا مـَا كَـبَتْ وُجـوهُ الرجال

حيث الشّاعر عبّر في مدحه ممدوحه (الأسود بن المنذر اللخمي) عن المليون بضرب ألف في ألف، وهذا الانطباع لا يدل على فن تعليمي، ولكن العرب المؤهَّلين ثقافة وموهبة، كان بإمكانهم فعل ذلك، لو كانت هناك ضرورة علمية أو حضارية أو فكرية تدعو إلى ذلك.

بل يمكن أن نعمّق المسألة تعميقاً أبعد مما جاء في شعر ميمون بن قيس الأعشى، سواء دلّ ذلك على ما وقَرَ أسماءَهُمْ مما ورد عليهم من ابتكارات الشعوب المحيطة بهم، من ساسانيين، وهنود، وحتى اليونان أم على ما ورثوه من انطباعات علمية بسيطة في مختلف العلوم الإجرائية، والكونية الخارجية، وكل ما نعلمه يقيناً أن عرب ما قبل الإسلام، كانوا مولعين ولعاً بالمعادلة البسيطة ذات المجهول الواحد، مثلما جاء في أشعارهم وأسمارهم، من ذلك ما رواه الأصمعي أنه سمع، وهو الراوي الموسوعي، ناساً من عرب البادية يتحدثون أن إحدى النساء العربيات من قبيلة إياد المسماة هنداً بنت الخُسّ بن حابس، كانت قاعدة في جوَارٍ لها، وإذا قَطاً (جمع قطاة طائر في حَجْم الحمامة) وارد في مضيق الجبل، فقالت:

يا ليْـتَ ذا القَطا لنا ومِثْلَ نِصـْفِه مَعَـهْ
إلـى قَطـاةِ أَهْـلِنـا إِذاً لنا قَطاً مِـئـهْ

فَأُتْبعت القَطا وإذا هي على الماء، فعُدَّتْ، وإذا هي ستّ وسِتّون، وذكر غير واحد من علماء الأخبار والأنساب أن هذه الفتاة من بنات لقمان بن عاد، وأن اسمها عنز، وكانت زرقاء مثلها مثل الزبّاء، وكانت عنز يمامية، وزعموا أنها تبصر

مسيرة ثلاثة أيام، ولذا قيل: "أبصر من زرقاء اليمامة"، ناسين إليها رجزاً يشير إلى القصة نفسها، لكن بصيغة أخرى:

لــيْت الحمــامَ لِــيَـــهْ ونِــصْــفَــه قَــدِيَـــهْ
إلى حــمامَــتِــيـــــهْ تــمَّ الــحــمــامُ مِــيَــهْ

وتركيب المعادلة، بفرض القطا المجهول (س) عند غير زرقاء اليمامة – بالطبع – على الشكل:

$$س + \frac{س}{2} + 1 = 100$$

$$3 س + 2 = 200$$

$$س = \frac{198}{3} = 66 \text{ قطاة}$$

ولما كانت هذه القصة شائعة لدى سَامِرة العرب، سَنَح للنابغة أن يستــثــمرها في داليته الشهيرة متمنياً من مهدر دمه النعمان بن المنذر أن يُصِيبَ في حكمه عليه إصابة هذه الفتاة، وألاّ يَقْبل ممن سعوْا عليه (بنو قريع) في أمر المتجردة وفي هذا المعنى يقول:

واحْكُمْ كحُكْمِ فتاةِ الحيِّ إذْ نَــظَرَتْ إلـــى حـــمامٍ سِراعٍ واردِ الــثَّــمَــدِ
يَحُفُّه جانِــبـــا نِــيـــقٍ وتُــتْــبِــعُه مِثْلَ الزُّجاجة لم تُكْحَلْ مـــن الرَّمَدِ
قالت: فياليْتَــما هذا الحمامُ لــــنــــا إلى حمامتــنـــا، ونِــصْــفُــه فَــقَــدِ
فَحَسَّــبوه، فَــأَلْــفُــوْهُ كما زَعَمَتْ تسعاً وتسعين، لم تَــنْــقُصْ ولم تَزِدِ
فكَمَّلَتْ مائَـــةً فيـــها حمامــتُــهـــا وأسرعتْ حِسْبَةً في ذلك الــعـــددِ

وإن تَعَجَبْ فَعَجَبٌ قولُ بعض الدارسين من المتنورين العرب، يزعم فيه أنّ أراجيز العرب التي اشتهر بها العجاج وابنه رؤبة وحتى الأغلب العجلي الذي يعدّ أول من شبّه الرجز بالقصيد وأطاله، ومن سار في ركبهم، هي متون لغوية معتبراً شوقي ضيف أن هذه المتون التعليمية للاكتساب اللغوي بلغت ذروتها في

الأرجوزة الأموية، مع أن الأصمعي حين سئل عن الأغلب العجلي: "أفحل هو أو من الرجاز ؟ فقال: ليس هو بفحل ولا مُفْلِح، قال: وأعياني شعره... وكان الأصمعي من أروى الناس للرجز،... وقال خلف أيضاً: أعياني شعر الأغلب"، بل أخبر أبو حاتم نقلاً عن ابن دريد أنه قال: "رأيت الأصمعي يستجيد بعض رجز أبي النجم، ويضعّف بعضاً، لأنّ له رديئاً كثيراً".

وإذا كان لا بد من اعتبار الأراجيز الجاهلية والإسلامية والأموية وحتى العباسية متوناً لغوية، فبالأحرى أن نعدّ الشواهد اللغوية كذلك، ولعل الإشكال الذي وقع فيه هؤلاء، أنه غاب عنهم التمييز بين المدونة كحجّة قائمة على علماء العربية، وليست الأراجيز إلا جزءاً من هذه المدوّنة، والمتون التعليمة التي يجب أن تستقى استقاء إجبارياً من القواعد المستعملة في هذه المدونات، أضف إلى ذلك أن علماء العربية من أولهم إلى آخرهم، هم من استشهدوا بالمتكلمين العرب المُعْتَدّ بهم لسانياً وجغرافياً، خلافاً للقواعد الفرنسية –مثلاً– التي احتكم الكتاب فيها إلى النحاة مثلما آل الأمر إليه، أو كاد، عندنا، حيث صرنا نحتكم إلى نحاتنا، بدلاً من أن نحتكم إلى العربية نفسها التي كانت قطعيّة على نحاتنا أنفسهم، وهذا هو الفرق بين نحاتنا القدماء ونحاتنا المحدثين، ومن هنا يلج المغرضون القائلون بصعوبة النحو العربي، وتعقيده، لأن هؤلاء ينظرون إلى قواعد العربية نظرة منفصلة عن العربية نفسها، ولا يتبصّرون حتى الفرق بين القواعد كملكة لسانية آلية، وعلوم العربية، مثلما سبق لابن خلدون أن أشار منذ قرون خلت، قبل أن تدرك هذا لسانيات القرن العشرين.

ولعل إبان بن عبد الحميد اللاحقي يعدّ أبرز من تفرغ لنظم الشعر التعليمي فالرجل تعاطي كل الاختصاصات، من التاريخ، والفقه، والعلوم، إلى كليلة ودمنة إضافة إلى منظومات شعرية حول سيرة أنوشروان، وسيرة أردشير وغيرهما ليعقبه ناظمون آخرون أمثال بشر بن المعتر الذي نظم منظومتين تدور فحواهما

حول قدرة الله وعظمته في خلقه وصولاً إلى قاعدة التوحيد ومذهبه في الاعتزال ورده على الإباضيين، فضلاً عن منظومة ثالثة في الإمام علي وتفضيله على الخوارج، إلى جانب علي بن الجهم صاحب الأرجوزة التاريخية من آدم إلى معاصره المستعين بالله، ليقلّده بعد ذلك في الأندلس ابن عبد ربه الذي نظم أرجوزة في وصف وتوثيق مغازي عبد الرحمن الناصر، دون أن نُغْفِلَ هنا أرجوزة يحيى بن الغزال في فتح الأندلس.

وهذه المنظومات التي نظمت بدوافع متفاوتة بين هذا وذاك، كما تدل عليها مواضيعها، لا صلة لها بعلم العربية، ولكنها تقودنا إلى اليقين بأن الشعر التعليمي عند العرب، تشأ نشأة أصيلة، كما تنشأ النبتة في شاطئها، ليتسع ويشمل سائر الفنون والعلوم.

لكن ليس من مهمتنا هنا الحديث، بشكل مباشر، عن الشعر التعليمي العام، وقد تحدّث عن هذا دارسون لم يكادوا يتركون لدارس لاحق ما يخطر بباله أن يقول وخاصة الأستاذ عصمت عبد الله في كتابه "الشعر التعليمي في القرون الأربعة الأولى"، بل مهمتنا الأساس تكمن في تناول ما له علاقة مباشرة بالأراجيز أو المتون التعليمية في علم العربية، من خلال أرجوزة المكودي في علم التصريف غير أننا نكره أن ندخل هذه الأرجوزة المكودية من كوتها الضيقة، وصاحبها توفي سنة 807 هـ.

ولعل الخليل بن أحمد كان أول من فتح المتون التعليمية بوصفه كتابي بن عمر الثقفي (149هـ) اللذين لم يرهما أحد سواه، بقول:

بطل النحو جميعاً كله غيرما أحدث عيسى بن عمرْ
ذاك إكمال، وهذا جامع فهما للناس شمس وقمرْ
وهما بابان صارا حكمة وأراحا من قياس ونظرْ

وأنشد أحدهم أبياتاً للخليل ذات ملامح لسانية واضحة، يمكن أن يُسْتَوحى ما يُسْتَوحى منها من أراجيز نحوية:

لا يكون السَّـريُّ مـثـلَ الـدّنــ ـيِّ، ولاذو الـذكـاء مـثـل العَيِـيِّ
قيمةُ المرءِ كل ما يحسن المر ءُ، قضاءٌ من الإمام علـيِّ
أيُّ شيء من اللباس على ذي السَّـ ـرْو أبْـهـى مـن اللِّسان الـبهـيِّ
يَـنْظِمُ الحجة الشَّـيتةَ فـي السِّلْـ ـك مـن القول مثل عِقْد الهَدِيِّ
وترى اللَّحن بالحسـيب أخي الهيْـ ـئـةِ مثل الصدى على المشرفـيّ
فاطلب النحو للحِجـاج وللشعـ ـر مـقـيمـاً والمُـسنَـدِ المَرْوِيِّ
والخطاب البليـغ عـند حوارِ الْـ ـقولِ يُـزْهَى بمـثلـه فـي الـنَّدِيِّ
وارفض القولَ من طَغامٍ جَفَوْا عَنْـ ـهُ، فعادَوْه نَـصْـبَةً للـنَّـبِـيِّ

ومما يُرْوى أن أبا القاسم الباهليّ المهلَّبي، وكان من طلاب قطرب، جعل له أجراً مقابل تقديمه على نفسه، والإقرار له بالعلم، وقول شعر في ذلك، فأجابه قطرب (206هـ) إلى ذلك:

ذا مـا أقـرّ بـه قُـطـرُبٌ على نفسـه لأبـي القَـاسِـمِ
وأشْهَـدَ هـوداً وَجَـهْـمـاً عليه وأشهد غَـزْوانَ مَـعْ عـاصِـمِ
بأنْ قال: قد بَـذَّني فـي القيـاس وصيَّـرْتُ فـي يـده خاتـمـي
وأعلـمُ بالنـحـو من سيبـويـه وأجـود بالـمـال مـن حاتِـم
بـديـهـتُـه عنـد رَدّ الجـواب تـزيـد عـلـى فـطنـة العالِـم
فصرت علـى السّنّ تلميـذه وصار أبو قاسم عالِمِي

وقال الجمّاز يمدح أبا عثمان المازني (233هـ)، وكان يسمّي بكر بن حبيب:

أعلمُ الناس بنحو وبشعر وغـريبْ وبأيام جميع الناس بَكْرُ بنُ حَبِيبْ

بينما هجاه عبد الصمد بن المعذَّل:

وفـتًى من مازنٍ ساد أهلَ البَصْـرَهْ أمُّـه مـَعْرِفَـةٌ، وأَبُـوه

وقال أبو محمد يحيى بن المبارك المسمَّى اليزيدي (202هـ) هاجياً علماء البصرة والكوفة جميعاً:

وقلْ لمـنْ يطلب عـلـماً ألاَ نـادِ بـأعلـى شـرفٍ نـادِ
يـا ضـيعةَ النحـو بـه مُغْـرِبٌ عـنـقـاءُ أوْدَتْ ذاتُ إصـعـادِ
أفـسـده قـوم وَأَزْرَوْا بـهِ مـن بـيـن أغْـتـامٍ وأوغـادِ
ذوي مِـراءٍ وذوي لُـكْـنَـةٍ لِـئـامِ آبـاءٍ وأجـدادِ
لـهـمْ قـيـاسٌ أحدثـوه هُـمُ قـيـاسُ سَوْءٍ غـيـرُ مـُنْـقـَادِ
فـهـمْ من النـحو ولو عُـمِّروا أعمـار عـادٍ – فـي أبـي جـاد
أما الكسائـيُّ فـذاك امـرؤ في النـحو حادٍ غـيـرُ مُـزْدادِ
وهو لـمن يـأتـيـه جَـهـلاً به مِـثْـلُ سراب الـبِـيـدِ للصَّادِي

وحين وقف أعرابي على أبي زيد، ظن أنه سائل يسأله عن مسألة في النحو فقال له أبو زيد (215ه): سل عمَّا بدا لك، فأجابه الأعرابي على بداهته:

لـيْسـتُ للنحـو جـئتكـمْ لا، ولا فـيـه أرْغَبُ
أنـا مـالي ولامـرئٍ أبَـدَ الـدَّهـرِ يُضْـرَبُ
خلّ زيداً لـشـأنِـهِ حـيـثـما شاء يـذهَـبُ
واستـمعْ قـولَ عاشِـقٍ قد شـجاه الـتَّـطرُّبُ
همُّهُ الدهـرَ طِـفْـلَـةٌ فهو فيها يُـشَـبِّـبُ

ومما ذُكِرَ أن اليزيدي (يحيى بن المبارك) أنشـأ يهجو الكسائي (189هـ) بعد واقعته مع سيبويه بشأن المسألة الزنبورية المحتجِّ عليها بأعراب من قُطْرُبُّلَ كانوا ينزلون سواد قرى بغداد:

كنا نقيس النحو فيما مضى على لسانِ العرب الأُوَّلِ
حتى أتى قوم يقيسونه على لُغَى أشياخِ قُطْرُبُّلِ
فجاءنا قوم يقيسونه على لسان النَّبْطِ الأَرْذلِ
فكلُّهم يعمل في نقضِ ما به يصاب الحق لا يَأتَلِي
إنّ الكسائي وأصحابه يَرْقَوْن في النحو إلى أسفل

ولما توفي العالم النحرير، والأديب الأريب، والناقد البصير، أبو العباس محمد بن يزيد المشهور بلقب المبرَّد (286هـ) رثاه محمد بن علي بن يسار العَلاَق الضرير:

ذهب المبرَّد وانقضت أيّامُه وليمْضِيَنْ مع المبرّد فَسَيَخرَبُ
بيت من الآداب أصبح نصفه خرِباً وباقي نِصْفِهِ فَسَيَخرَبُ
فتزوَّدوا من ثعلب، فبكأس ما شرب المبرَّدُ عن قليل يشرب
واستجلبوا ألفاظه وكأنكمْ بسريره وعليه جَمْعٌ مُجْلِبُ
وأرى لكمْ أن تكتبوا أنْفاسه إن كانت الأنفاس مما تُكْتَبُ

وكتب عبد الله بن المعتز، وله إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، لمودِّبه ومعلمه أبي الحسن أحمد بن الحسن الدمشقي:

أصبحت يا ابن سعيدٍ حُزْتَ مكرُمةً عنها يُـقَصِّر من يَـحْفَى وينتعِلُ
سَرْبَلْتَنِي حكمةً قد هذَّبَـتْ شِـيَمي وأَجَّجَتْ غَربُ ذهنِي فهْو مُشْتَعِل
أكون إنْ شِئْتُ قُـسّاً في خطابته أو حارثاً وَهْو يَوْمَ الفخرِ مُـرْتَـجِلُ
وإنْ أشأْ فكزيــدٍ فـي فـرائضهِ أو مثل نُعْمانَ لمّا ضاقتِ الحيلُ
أو الخليلَ عروضيـاً أخا فِطَنٍ أو الكسائـيَّ نحويـاً له عِـلَـلُ
تَغْلـي بُدَاهةُ ذِهْني فـي مُرَكَّبِـها كمثـل ما عُـرِفَتْ آبائـيَ الأُوَلُ
وفـي فـمي صارم ما سلَّه أحدٌ من غِمدِهِ فَدَرى ما العيش والجَذَلُ
عُقْبـاك شكر طويلٌ لا نَـفَـاد له تَـبْقى معالـمُه ما أطَّـتِ الإِبِـلُ

ولعل المتلقي لهذا العمل يتساءل عن هذه الاستطرادات التي قد يستثقلها استبطاء لتناوُلِ الموضوع الأساس، وإذا كان من حقه ذلك، فإن ما قصدناه أن نؤكد مع من تقدمنا في تأكيده، بأن الشعر التعليمي عموماً، ظهر في الثقافة العربية وفكرها وحضارتها ظهوراً أصيلاً ناصعاً لا هجيناً، وما أوردناه من نماذج، حرصنا فيها أن تكون ذات صلة قوية بالمتون اللسانية العربية اللاحقة، سعياً منا للوقوف والاستيقاف على أن الفضاء اللغوي العربي العامّ، ومنذ القرن الثاني الهجري عرف مقطوعات تعليمية، بعضها لا يرقى إليها شك قليل ولا كثير مثل مقصورة ابن دريد (323هـ) التي جمع فيها أغراضاً شعرية وأدبية وقضايا لغوية وبلاغية وهي منظومة تعليمية واضحة، بل ما لنا ولا بن دريد، وأمامنا مثلثات قطرب (206هـ) الذي عاصر أرباب العربية وعلماءها في أزهى فترة من فترات إبداعاتها على الإطلاق ؟، فحين يريد أن يرفع اللبس عن كلمة "الغمر" المثلثة الغين، يقول ناظماً:

إن دموعي غَـمْـرُ ولـيـس عـنـدي غِـمْـرُ
يـا أيّـُهـا ذا الـغُـمْـرُ أقـصِـرْ عـن التـعـتّـب

فيشرحها شارحها نظمـــاً:

يقـــال للمـــاء الكثيـــر غَـمْـرُ والحِـقْد في الصـــدر فَذاك غِـمْرُ
والرجُلُ الجاهل فَهْـوَ غُـمْـــرُ إن لم يكن حَـبْـراً من الأحْـــبارِ

بل سنكون مجحفين إجحافاً كثيراً في تأصيل هذه المتون التعليمية، إذا أغضينا طرفنا على ما جاء في المقدمة النحوية المنسوبة لخلف الأحمر (180هـ) من تصريح بقصيدة نحوية ينسبها المصدر ذاته دون تردّد للخليل بن أحمد (170هـ؟) إذ نجده يذكر في باب النسق بيتين نحويّين:

فانسُق وصِلْ بالواو قولك كله وبلا وثم وأو، فـليْسَت تصْعُبُ
الفاء نـاسقـة كـذلك عنـدنـا وسبيلُهـا رحْبُ المذاهبِ مَشْعَـبُ

قائلاً بصريح العبارة: "وقد ذكرها الخليل بن أحمد في قصيدته النحوية".

وشاءت الأقدار لهذه المنظومة النحوية المنسوبة إلى الخليل، والتي قد تعدّ منظومة لسانية في القواعد العربية، أن ترى النور على يد أحد المحققين، وهي مؤلفة من اثنين وتسعين ومائتي بيت، ولا تزال الشكوك والملاحظات تحوم حول صلة نسبة هذه المنظومة النحوية إلى الخليل، مثلما هو الشأن بالنسبة لكتاب "الجمل"، وأعتقد أن مفتاح الحلّ ليس في عزو هذه القصيدة إلى الخليل أو غيره، بل في مدى صحة نسبة "المقدمة في النحو" من عدمها إلى خلف الأحمر، فإذا ما ثبت أن هذه المقدمة النحوية لهذا الأخير ثبوتاً لا يشوبه أدنى شك حول المقدمة، فإن نسبة القصيدة النحوية إلى الخليل نسبة واهية، بل زائفة، وهذا ما سبق لي أن قلته حرفياً: "وقد يتساءل متسائل: إذا كانت هذه المنظومة النحوية للخليل، فلماذا لم يذكرها تلميذه سيبويه الرجل النزيه الوفيّ، ولا أحد غيره، من العلماء، ما عدا الإشارة إليها في هذه المقدمة النحويّة المنسوبة لخلف الأحمر؟ وما هو طبيعي أن حصر علم نقلي أو عقلي لا يتم إلا بعد استنباطه وتدوينه كتابةً، والغالب على الظن

أن هذه المنظومة اللغوية غير منحولة على الخليل، إذا تأكد أن نسبة "المقدمة النحوية" لخلف الأحمر الذي يقترب تاريخ وفاته بتاريخ وفاة سيبويه، ومع ذلك يظل السؤال مطروحاً حول مصداقية هذه المنظومة الخليلية في غياب أيّة إشارة لها من سيبويه، غير أن هذا الأخير لم يكن مجبراً ولا مضطراً إلى ذلك، فعمله تطبيقي أكثر مما هو تنظيري، ثم إن هناك تراثاً لسانياً خاصاً وعاماً مثبتاً للخليل، ولم يشر إليه سيبويه، ويظهر أن الخليل لم يكن يطلع أي أحدٍ على أخصّ إنجازاته العلمية ومنهم سيبويه".

ومما ينقله السيوطي عن أبي حيان من ارتشافه أنه كان لأحمد بن منصور اليشكري منظومة رجزية في النحو تعدَّت الألفي بيت، ومما جاء فيها:

والوزن في الغـزاة والرمـاةِ في الأصل عـند جـملـة الـرواةِ
فُـعْـلـة ليـس لها نـظـيـرُ فـي سالِـمٍ مـن شأنـه الظهـورُ
وآخرون فيه قالوا: فُعْلَـةْ كمـا تـقول فـي الصحيح الحمله
فَـخُـصّ وذلك حـرف الفاءِ بالضم في ذي الواو أو ذي الياء

وجاء فيها أيضاً:

وما جوادك الغلام راكـبُ فليس للجواز يلفـى ناصِبُ
إلا ابن كيسان من المذاهب فإنـه أجاز نصْـب الـراكـبِ

وإذا كان السيوطي سكت عن ذكر شيء من سيرته، فإننا في مقدمة الاشتقاق لابن دريد (221هـ) أن صاحب هذه الأرجوزة النحوية الطويلة لم يكن إلا تلميذاً من تلامذته، وبذلك يكون قد عاش منذ بداية القرن الرابع الهجري، ويبدو أنه يكون قد تأثر بمقصورة أستاذه التي فتحت له السبيل إلى نظم أرجوزته النحوية التي يبدو من بعض نماذجها النزرة أنها أرجوزة ذهب فيها صاحبها كل مذهب، بما في ذلك التمذهب والاختلاف بين العلماء.

وما يهمنا من إشارتنا إلى أرجوزة أحد تلاميذ ابن دريد في علم العربية، أن الأراجيز التعليمية للقواعد العربية ظهرت ظهوراً لا يتطرق إليه الشك في العقود الأولى من القرن الرابع الهجري على الأقل، لأن الشعر التعليمي أصبح في هذه الفترة يمس فنوناً واختصاصات عديدة، مما لفت انتباه لغويين، ما لبثوا أن انبروا إلى استحداث هذه الطريقة التعليمية وعرضها على المتعلمين الذين هم بحفظها واستيعابها يحفظون ويستوعبون اللغة العربية كلها استيعاباً سليقياً، بصرف النظر عن سلبياتها في منظورنا نحن المحدثين.

ويكاد يجمع الدارسون للأراجيز اللسانية، بأن "ملحة الإعراب" للعلامة القاسم بن علي بن محمد بن عثمان أبي محمد الحريري الشافعي البصري (446 – 516) والمؤلَّفة من ثلاثمائة وستة وسبعين بيتاً، تعَدّ أول أرجوزة في علم العربية، وهي تمتاز بشرح المؤلف نفسه للأبواب التسعة والخمسين التي شملت النحو والخوض في أوجه الخلاف بين النحاة، داعماً شروحه وحججه بنصوص قرآنية وشعرية إلى جانب أربعة أحاديث نبوية.

وإذا كان الدارسون العرب لا يتجادلون كثيراً في اعتبار "ملحمة" الإعراب" أول أرجوزة بيّنة في علم العربية، فإن ثمت ناظماً كبيراً، وعالماً جليلاً، لا يزال حتى وقتنا في دراساتنا ورسائلنا وجامعاتنا شبه مجهول لدينا، إنه الإمام مهذب الدين مهلّب بن حسن بن بركات المهلبي (583هـ؟) صاحب "نظم الفرائد وحصر الشرائد".

ومن حُسْنِ طالع سَعْد الموروث اللساني العربي أن هيَّأ الله لهذه اللغة من يَسْدُنُها في كل عصر ومصر، بحيث لا يخلو زمن من أزمنة حياتها من رجالات ينكرون ذواتهم، ويعكفون على خدمتها وتوثيق إنجازاتها، ولذا وجد هذا الرجل من ينصفه ولو قليلاً، ويذكر نبذاً من سيرته وعلمه.

وقال المؤلف نفسه واصفاً كتابه ومنهج عمله في منظومته وشرحها: "قد جمعت... مما استنبط من الشروح والعقود الموجزة لُمَعاً من ها هنا، ومن ها هنا على غير الترتيب المعهود في كتب النحو، ثم نظمتها شعراً، فكان نحواً لِمَا تفرَّق من شملها، وعقالاً لِمَا ندّ من شريدها، وتَذْكاراً لِحَفَظَتِها، وعوناً على روايتها، ثم شرحت ذلك الشعر شرحاً مختصراً مُصَاقِباً لإيجازها، وتقريباً لِنَجارها،... وإذاً ما من حرف من هذه اللُّمَع إلاَّ وقد كــرّره المتقدمون في كتبهم، وتعاورتْه شروحهم،... فبسْطه إذاً وذِكْرُ شواهده من الإسهاب المؤدي إلى الضجر والملل والعيّ، وسميت هذا الكتاب "نظم الفرائد وحصر الشرائد".

وإذا كان من الإنصاف تسبيق الإمام العلامة القاسم بن فِيرَّة بن خلف بن أحمد الشاطبي الأندلسي (538 – 590هــ) صاحب "حرز الأماني ووجهة النّهاني في القراءات السبع"، فضلاً عن قصائد تعليمية أخرى في علم الرسم، وعلم عدد الآي وغير ذلك، فإن يحيى بن معط بن عبد النور أبا الحسين زين الدين الزواوي الجزائري (564 – 628هــ) يعدّ أوّل نحوي اشتهر بنظمه الألفيّ في النحو، ليصبح بعد ذلك نموذجاً يُحْتذى به، فهذا ابن مالك (672هــ) يضع منظومة في ثلاثة آلاف بيت، سمّاها "الكافية الشافيه" ثم ما لبث أن عاد واختصرها في ألف بيت مسمّياً إياها "الخلاصة"، وهي الألفية السائرة بيننا.

ومما وقفت عليه أن كتب الطبقات والتراجم تشير إلى ولادته بالمغرب، وهي إشارة عادية من علماء المشرق في تلك الآونة، ومع ذلك، لئن كنا نلتمس عذراً للقفطي (568 – 624هــ)، فإننا لا نجد عذراً للسيوطي (911هــ)، لأن مصطلح "الجزائر" جغرافياً وسياسياً كان قد تبلور بصورة نهائية في زمنه، ولكن العادة كانت تغلب على التسمية، إلى درجة وصف شخصية بثلاث نسب لبلد واحد، ألم يقل السيوطي، مثلاً، في ترجمة الأشيري النحوي: "محمد بن قاسم بن منداس أبو عبد الله المغربي البجائي الجزائري، ويعرف بالأشيري النحوي"، علماً بأن هذه

الشخصية النحوية الجزائرية (557 – 643هـ) عاصرت نحوينا ابن معط، وكلاهما أخذ عن الجُزُولي (607هـ).

أيًّا كانت الحال، فقد سمّى ابن معط مولوده "الدرة الألفية في علم العربية" بتصدير:

يقول راجي رحمة ربه الغفورِ يحيى بن معطي عبد النور
نظمها الشيخ الإمام يحيى فذكْره يبقى بها ويَحْيَى
على مرور الدهر والأعصار وحيثما حلّت من الأمصار

وتمتاز ألفية ابن معط بمصطلحها الذي شاع بعده، وبنظمه الألفية على بحرين هما: الرجز والسريع، مما جعله يخرج عن العادة المتبعة في نظم القصائد التعليمية على بحر واحد، علماً بأن البحرين متقاربان صوتياً وموسيقياً، لا يشعر في تباينهما إلا من أوتي أذناً موسيقية، وحساً مرهفاً، وذوقاً صافياً، ولم يكن ابن معطي إلا كذلك، فالرجل لم يكتف بالنظوم العلمية بألفيته النحوية، وقصيدته في القراءات السبع، ونظم معجم الصحاح للجوهري، وإن لم يوفَّق في إنهائه، ونظم معجم الجمهرة لابن دريد، وآخر في العروض،... بل قارع الشعراء بشعر عذب رقيق يختلف عمّا عهدناه في أشعار العلماء:

ولمّا تبدّي لي من السِّجْف حاجبٌ ومقلة لَيْلَى من وراء نِقابها
بعثتُ الرسول الدمعَ بيني وبينها ليَأذَنَ في قربي وتقبيل بابها
فما أَذِنَتْ لي إلا بإيماءِ لحْظِها ولا سمحت إلا بِلثْمِ تُرَابِهَا

وأما ابن مالك (600 – 672هـ)، فهو أشهر من أن يومأ إليه، وألفيته من أشهر المنظومات النحوية، مع أنها متلاقية مع ما تقدمها، وما تأخر عنها، وتكاد تقول الشيء نفسه المتعارف عليه لدى غيره من الناظمين النحويين، ولكن عوامل، لا تدخل في موضوعها لذكرها، ساعدتها وفضّلتها على غيرها من الألفيات مشرقاً ومغرباً.

ويبدو أن الزمخشري (538هـ) القائل في كشافه:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي

لم يكن بالعالم الذي يقنع ابن مالك الذي كان يقول عن معاصره ابن الحاجب (464هـ): "إنه أخذ نحوه من صاحب المفصّل، وصاحب المفصّل نحوي صغير" ولكن ابن مالك يقر بفضل سبق ابن معطي عليه:

وتقتضي رضاً بغير سُخْطِ فائقة ألفيّة ابنِ مُعْطِي
وهْو بسبقٍ حائزٌ تفضيلاً مُستَوجِبٌ ثنائيَ الجميلاَ
والله يَقضي بهباتٍ وافرهْ لي ولهُ في درجاتِ الآخِرهْ

ومما لا يجدي أن نتصور: لماذا كانت هاتان المنظومتان في علم العربية ألف بيت دون زيادة، ولا نفقصان، مع أن المادة واحدة، والتعبير عنها طولاً وقصراً متباين بين المعبّرين؟ كل لغوي غدا يعلم أن العناصر النحوية أو القواعدية بشكل عام عناصر ذات مجال مغلق، وكلتا الألفيتين استقصت هذه العناصر في علم العربية، لكن تقديمها وتبليغها للمتعلم، وهو الأساس من نظمها، كان ممكناً أن ينقص أو يزيد، ولكن ابن مالك ركّز واختصر ما نظم قدوة بابن معطي، على أنه سيحذو حذوهما بعد حين الآثاري في ألفية ثالثة فكرة وحتى نهجاً.

وإذا ضربنا صفحاً عن بعض المنظومات الأخرى التي تناولت جوانب من علم العربية، كأرجوزة نجد حسن المرادي (749هـ) في مخارج الأصوات وصفاتها وأخرى في معاني الحروف، فإنه لا يمكن أن نقفز على "ألفية" زين الدين شعبان بن محمد القرشي الآثاري (765 – 828هـ) المعاصر للمكودي.

وما تميزت به ألفية الآثاري أنها مزجت بين صنعة ابن معطي، وصنعة ابن مالك:

قايمة "بأوضح المسالكْ" عن ابن معطٍ وعن ابن مالكْ

وله شرح على ألفية ابن مالك في ثلاثة مجلدات، يبدو أنه لم يَتِمَّ، كما ذكر السخاوي، لكن هذا الشرح لم يصل إلينا، وله أراجيز تعليمية أخرى في العلوم والعروض والقوافي،....

ومما استوقفني استغراباً مؤلَّف يشمل ستة وستين متناً في مختلف الفنون والعلوم، دون الإشارة لجملة واحدة، لأهم المنظومات العربية مثل منظومة التصريف لأبي عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي (807هـ)، حتى لا أقول ألفية الآثاري، وهو مؤلَّف تجاري ساقط خسيس صدر عن إحدى الدور لمسخ الموروث اللساني العربي، وأبواب أخرى في الأسانيد والأصول، والبيان والأدب والمنطق والحكمة،...

وفيما رجعنا إليه لم يَبُلَّ صَدَانا، ولا أقنع نهمنا واشتياقنا، فيما رُمْنَا أن نقف عليه، بالنسبة لسيرة الشيخ المكودي الذي عاش أكثر حياته في القرن الثامن الهجري، والمصادر التي وُفِّقْنا في الرجوع إليها مصادر شحيحة ولا تذكره إطلاقاً إما لجهلها بهذا العالم الذي وقف حياته لِسَدْن العربية وعلومها، والحرص على نشرها وتعليمها والتأليف فيها، وإما لكون الرجل ظل شخصية مغربية خالصة الأمر الذي جعله يبقى مغموراً مطموراً، لا لشيء، سوى لأنه لم يرحل، على عادة من سبقه ولحقه من أقرانه العلماء، إلى المشرق العربي، وخاصة إلى القاهرة ودمشق، أضف إلى ذلك أن كتب التراجم والطبقات خبا ازدهارها، وتوارى شمسها في الفترة التي عقبت وفاته، فهذا السيوطي (911هـ) القريب جدا من عصره يجتزئ في ترجمته بقوله: "عبد الرحمن بن علي بن صالح أبو زيد المكودي صاحب شرح الألفية، وشرح الآجرومية، ويُعْرف بالمطرزي، لم أقف له على ترجمة، لكن أخبرني المؤرخ شمس الدين بن عزمي أنه وقف على ما يدل أنه كان قريباً من الثمانمائة"، وهذا النص يدلّ على أن السيوطي كان لا يعلم منظومة المكودي في التعريف.

ولا أدلّ على جهل الأخباريين والموسوعيين بهذه الشخصية اللسانية الفذة أن العيد روسي في "النور السافر" وابن العماد الحنبلي في "شدرات الذهب" يزعمان أنه توفي سنة 901هـ، وحتى المصادر التي ذكرت المكودي، ذكرته ذكراً مقتضباً.

وجاء في حاشية الملودي (1181هـ) على شرح المكودي (807هـ) لألفية ابن مالك (672هـ) أن المكودي هو "أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي بفتح الميم وضم الكاف مخفَّفة: قبيلة قريبة من فاس، ومن شعره:

نحن بنو مكود أهل التقى والجود
نَكُرّ في الأعادي كرة الأسود

كان رحمه الله تعالى إماماً بارعاً في العلوم ورعاً زاهداً، وهو آخر من قرأ كتاب سيبويه بفاس، ومن مؤلفاته هذا الشرح الذي عمّت بركاته، وألّف شرحاً آخر أكبر منه، ولم يكمّله، وقيل: بل أتمّه، ولو بقي ما التفت الناس إلى غيره، لكن أحرقه أعداؤه حسداً، فدعا عليهم، وكانت دارهم دار علم، فقطع الله منهم العلم وكشف عنهم الستر إلى يومنا هذا، وله شرح على منظومة الإمام ابن مالك في المقصور والممدود، وشرح على الآجر ومية، انتفع الناس به شرقاً وغرباً، ورأيت بخط شيخنا أن له مقصورة في مدح النبي (ﷺ)، وقد نكت فيها على حازم وابن دريد وأخرى في علم التصريف، وشَرْح على مقصورة المديح المذكورة، وأرجوزة في شرح ألفاظ الغريب، وبالجملة كان ذا قدم راسخ في العلم والولاية، وتوفي سنة إحدى وثمانمائة كذا في التوشيح، وقبره مشهور بفاس... ومن شعره:

وقفتُ بباب الله وقفة ضارعٍ وقلتُ: إلهي، إنَّني لك قاصِدُ
ولسْتَ تراني واقفاً عند بابِ مَنْ يقول فتاهُ: سيدي اليومَ راقِدُ

بينما معاصره الفيرزأبادي (817هـ) لم يشر إليه في بلغته، ويظهر أنه لم يبلغ سمْعَه حسّ من أصداء المكودي، أو يكون أتمّ مؤلَّفه قبل بلوغ صداه إليه، لكن هل

ذكر في "طبقات النحاة واللغويين" لابن قاضي شهبة (851هـ) مقرئ الفقه والعربية في الجامع الأموي ردحاً من الزمن؟، ويبقى أن نرجّح أن تكون ولادته سنة 726هـ، ووفاته سنة 807هـ.

ونحن إذا التفتنا إلى آثار المكودي التي أشار إليها الملودي الأزهري في حاشيته على شرح المكودي لألفية ابن مالك، لألفينا أنها تضم، ممّا تضم مقصورته في مدح سيد الخلق(ﷺ)، ولألفينا في مضرب آخر كتابه المسمّى "عمدة البيان في معرفة فرائض الأعيان"، لننتبه إلى جمع الرجل بين العلوم العقلية والنقلية التي كانت سمة من سمات عصره الذي بدأ المنقول فيه يهيمن على المعقول، الأمر الذي جعل كل كعقول يؤول شيئاً فشيئاً إلى منقول، فكان ذلك علامة خروج من عصر إبداعي مشرق، ودلالة دخول في عهد تقليدي اجتراري لما سبق، والظاهرة تشمل جلّ من تعاطوا العلم في هذه المرحلة الحالكة.

غير أن الإشارة السابقة لا تنسحب تماماً على الأراجيز التعليمية التي أضحت منهجاً تعليمياً من مناهج ذلك العصر، بمعنى أن النبهاء من العلماء والأعيان فكّروا في وسيلة تعليمية تجمل وتؤمّن دوام العلوم اللسانية والفقهية والقرآنية وحتى الطبية وغيرها، فلم يجدوا مَوْئِلاً يلجأون إليه غير ارتكازهم على نظم تلك الأجناس من الفنون والعلوم بأوصافها وقواعدها، وتباين أو تواقف العلماء فيها، وذلك ما بدأ يطفو منذ عهد مبكّر في أشهر الحواضر العربية الإسلامية، ليختص بذلك حقاً بوجه أخص المغاربة والأندلسيون، نظراً لتنائيهم عن المصدر الأصل لهذه العلوم وتأخرهم فيها، فكان لا بدّ من وسيلة تعليمية تغني القوم عن الكتابة التي لم تكن أمراً هيناً مجال النسخ والنشر والتوزيع.

ولعل المكودي أفضل من عبّر عن نفسه، وعن دواعي عمله في شرح ألفية ابن مالك: "أما بعد: فهذا شرح مختصر على ألفية ابن مالك مهذّبُ المقاصد، واضح المسالك، تُفْهَمُ به ألفاظُها، ويَحْظَى بمعانيها حُفَّاظُها، مُعْرِبٌ عن إعراب أبياتها

ومقرِّب لِمَا شَرَدَ من عباراتها، من غير تَعَرُّض للنقل عليها، ولا إضافة غيرها إليها، ولا إنشادِ شواهد إلا ما بدا منه، ولا إيرادِ مَذْهبٍ إلا ما لا مندوحةَ عنه سيستفيد به البادي، ويستحسنه الشادي، والباعث عل ذلك أن بعض الطلبة المبتدئين والفئة المجتهدين المعنيّين بحفظها القانعين بمعرفة لفظها، طلب مني أن أضع شرحاً على نحو ما ذكرته، وأبيِّنَ ألفاظها ومعانيها على حسب ما وصفتُه، فَأَجَبْتُه إلى ما اقترح عليَّ، وأسعفتُه بما أمِلَ لديَّ".

ولا أجزم جزماً، ولكني أميل إلى الجزم ميلاً، بأن كل شرح لألفية ابن مالك بعد شرح المكودي، ما كان، ولن يكون إلا حشواً "يُطَلْسِمُها" ويطمس معالمها أكثر مما يعمل على بيانها وتيسيرها وجلائها، بل فَلْيَسْتَحْيِ، لأن القواعد في أية لغة ظواهر لسانية ثابتة، وما قصد المكودي من شرحه إلا التقريب والتسهيل والتيسير بناء على اقتراح من أحد طلبته المريدين، ومن ثم يعدّ شرحه هذا من أيسر الشروحات التي كان هدفه الأسمى من ورائها التعميم والتيسير لقواعد النحو العربي، بافتضاض طلاسم الألفية، وفك ألغازها، وجعلها في متناول المتعلمين المبتدئين، والأكاديميين، والهاوين، والفضوليين سواء بسواءٍ.

ومنهج التيسير الذي قطعه المكودي على نفسه في شرح ألفية ابن مالك، ظل خياله طوال عمله، وبقي يراقب خطوات عمله وشرحه من البداية حتى النهاية لأنه حين سار سيراً طويلاً، وألفى نفسه وسط لُجّ من المعارف النحوية البعيدة ذكّر المتعلم، وهو يتحدث عن الصفة المشبهة، قائلاً: "ثم إن هذه المسائل الجائزة تنقسم إلى حسن وقبيح وضعيف ونادر، وأنا أبسطها، وَأُوعِبُ الكلامَ عليها في "الشرح الكبير"، إن شاء الله تعالى، إذ لا يليق ذكرها بهذا المختصـــر، لكون الناظم لم يتعرض لها، وقد شرطت في صدر هذا الكتاب أن لا أذكر إلا ما يتعلق بألفاظها"، وهذا ما أكّده أيضاً في نهاية كتابه "قد أتينا على ما أردنا جمعه من الشرح والإعراب، واستوفينا ما وعدنا في أول الكتاب، فجاء شرحاً مكمِّل

المقاصِد، مُسَهِّل المعاني والفوائد، ينتفع به البادي، ويستحسنه الشادي، موافقاً لما رويته، موفياً بما أردت من اختصاره قد قصدته".

ويظهر أن الإمام السيوطي في شرحه للألفية، كان قد اطلع على شرح المكودي، إذ قال في تصدير "البهجة المرضية في شرح الألفية": "فهذا شرح لطيف، مزجته بألفية ابن مالك، مهذّب المقاصد، واضح المسالك، يبين مراد ناظمها، ويهدي الطالب لها إلى معالمها"، وبموازنة شرح مسألة نحوية بالمسألة نفسها في شرح المكودي، يتبين لك أن طريقة المكودي أيسر وأوضح، وأقرب إلى نفوس المتعلمين على تباين حظوظهم ومستوياتِهم في علم العربية بمعنى أن السيوطي كأنما كان يشرح لنفسه، لا لمن هم دونه، ولذلك نجد محقّق هذا الشرح يعبِّر شاكياً: "وانفرد السيوطي من بين شرّاح الألفية بغرابة شواهده، وعدم وضوحها الوضوح الكائن عند سابقيه، حتى إن بعض الشواهد كنا نمرّ بها، فلا ندري أهي شاهد أم مما تمثّل به المؤلّف من ألفاظ ليست شعراً أو نثراً".

وليس مناسباً أن أشير هنا إلى كل الشروحات التي اهتمت بالخلاصة الألفية في علم العربية، وما أكثرها، ولكن من باب الإنصاف الإيماء إلى الإمام ابن هشام الأنصاري (708 – 761هـ) الذي ما من شك، في أنه سبق المكودي بكتابه "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك"، لكن الفرق بين الشرحين المتقاربين زمناً، أن ابن هشام، وهو يحلّل الألفية، ويحشد الشواهد، ويُعَلِّل الألغاز النحوية، يتعامل مع النص أي ما ورد في المنظومة أكثر ممّا يتعامل مع المتلقي، في حين أن المكودي، وهو يشرح، ويبسّط، ويوضّح، تحس به، وهو يجدّ، ويبذل قصارى جهده، ليتعامل مع متلقيه أكثر مما يذوب وينصهر في المنظومة، أضف إلى ذلك أن المكودي حافظ على إيقاع تعليمي واحد طوال شرحه، وظل محتاطاً وحريصاً على ألاّ يتجاوز البعد العلمي والتربوي اللذين قطعهما للمتعلم على نفسه، أمَّا لغة المكودي، فتكاد تشبه اللغة التي نقف عليها اليوم في المؤلفات التعليمية الحديثة.

ومما زاد عمله تيسراً ورونقاً أنه لا يعرب بيت المنظومة، وهو عمل آخر غير الشرح، إلا بعد أن يحلّل البيت تحليلاً مبسّطاً دون إفراط ولا تفريط، فهو حين يصل إلى البيت (الخاص بجملة الحال):

وجملةُ الحال سوى مَا قُدِّمــا بواوٍ أو بِمُضْمَرٍ أَوْ بِهِما

يشرحه بقوله: "يعني أن الجملة الواقعة حالاً إذا كانت سوى ما تقدم يجوز أن تأتي فيها بالواو وحدها نحو: جاء زيد والشمس طالعة، أو بالضمير دون واو نحو: جاء زيد يده على رأسه، أو بالضمير والواو معاً، نحو جاء زيد ويده على رأسه"، فهذه المنهجية التعليمية ميسّرة لكل طلاب العربية، وأن هذه الأمثلة التي مثّل بها المكودي للحال حين تكون جملة، مما يُمَثَّل به للمبتدئين في مدارسنا.

على أي حال، إننا لا نقلّل مما قدّمه العلامة ابن هشام الذي أُعْجِبَ به ابنُ خلدون وأثنى عليه مِمَّا قدّمه، للغة العربية من بحوث علمية، لا تدلّ إطلاقاً، على أن صاحبها عاش في عصــر غابت فيه مظاهر الإبداع، وخمدت معالم الابتكار وندر إعمال الفكر والنظر، غير أن شرح ابن هشام لألفية ابن مالك يختلف منهجياً عن شرح المكودي، فالأول ينطق من مدونة وهمية ظناً منه أن المتعلمين يحفظونها، ولا يبقى إلا الشرح والبسط والتمثيل بشواهد قرآنية، وشعرية، فضلاً عما يغلب على عمل ابن هشام المسيرة اللغوية لسيبويه، في حين أن المكودي:"

1) ينتقل من المدونة الأصل.
2) تشعر بأنه كان يراقب خطواته، فهو غالباً ما يجتزئ بالبيت والبيتين حتى لا لا يثقل في شرحه على المتعلم، ولا يجعله يفتقد التركيز.
3) لغته العلمية لغة غير معقدة.
4) استعماله المصطلحات اللسانية الشائعة.
5) يرتكز في شرحه للمادة اللسانية على ربطها بالبنية الدلالية.

6) يركّز على التوضيح بالأدلة الإعرابية.
7) شواهده الشعرية أوفر من القرآنية مع استشهاده بجملة من الأحاديث.
8) ربما قابل في شرحه بين مصطلحات البصريين والكوفيين.

ويبدو لي أن المكودي لم يطلع على شرح ابن عقيل (698 – 769هـ)، لأنه لا يوجد أي تَلاَقٍ بين الشرحين إلا في كون الرجلين كليهما انطلق من نص الألفية وأما تشابه الشواهد الشعرية بين الرجلين، فذاك أمر مألوف بين كل النحويين واللغويين المتأخرين الذين جاؤوا بعد ظهور الكتاب، وما دام المذهب البصري ساد الأمصار بفضل شيوع كتاب سيبويه مشرقاً ومغرباً، كان منطق الأشياء يقتضي أن تتفاوت هذه الشواهد والنصوص والتراكيب التي اتُّخذت حجة للتقعيد والتوليد طالما أن الاتجاه البصري يقوم على التواتر المتماثل في قاعدة بعينها، ولكن ذلك لم يحدث إلا نادراً بدعوى أن المتأخر ليس أكثر حجة على المتقدم، أو لأن الاستئناس بالإمام أوْلى من الاستئناس بالمأموم.

إن شرح المكودي على ألفية ابن مالك له أكثر من مبرر فرضه عصر الضعف اللغوي، وبُعْدُ عدوة الغرب العربي الإسلامي من عدوة شرقه، وبروز شبح الانفصام، وتراجع التواصل بين قوم يتناحرون على السلطة والملك، وينافحون على لغة تجمعهم، وثقافة عربية إسلامية تشملهم، وتجمع شتاتهم، وتلحّم وجدانهم الخاص والعامّ.

وكنا أشرنا إلى الصناعة اللسانية في المشرق العربي، رغم ظهور بوادر الضعف اللغوي والأدبي، في عصر المكودي (الثامن الهجري)، فإن أهل المغرب كانوا أحوج إليها وصيانتها من نظرائهم في المشرق الذي ظلت كنوزه اللسانية تعمّ دمشق وبغداد ومصر،... على الرغم من همجية المغول والتتر في إتلاف مائات الآلاف من خيرة ما ابتكره العقل العربي من علوم وثقافة وفلسفة وآداب.

ولذلك، فلا تعجب إذا لم تجد تلك الأراجيز النحوية أصداء لها بالغة في المشرق العربي بالقدر الذي وجدته في الغرب الإسلامي، ولا تعجب أيضاً إذا اشتهر بهذه المنظومات التعليمية في علم العربية ناظمون مغاربيون وأندلسيون، ولكن بلغ الضعف اللغوي درجته العليا وسط حواضر مشرقية أسوة بما قد سبق للمغاربة والأندلسيين أن لمسوه، اضطر النبهاء في المشرق إلى تبنّي ما سبق للمغاربة أن تَبَنَّوْه من متون لسانية تمثّلت خاصة في ألفية ابن مالك على حساب ألفية ابن معطي لأسباب تحتاج إلى تحليل وتفصيل، لكن خارج هذا العمل.

لم يكن المكودي إلا واحداً من علماء اللسان العربي الذين توجّسوا خيفة من ضياع ذلك الصـــرح اللامنتهي من الموروث اللساني العربي الأصيل، ولم ير وسيلة أكثر نجاعة وفعالية من الالتفات إلى ابتكار طريقة تعليمية تقوم على تيسير على اللسان العربي العامّ باتخاذه ألفيّة ابن مالك في علمي الصرف والنحو، لتجيب اللغة العربية وتيسيرها بطريقة تعليمية تقدَّم لناشئة ذلك العصر بلغة تكون في متناول ذوقهم ومستواهم.

إن الرجل الذي كان آخر من قرأ سيبويه في عصـــره، كان بإمكانه أن يجتزئ بهذا المصدر اللساني العربي الجامع المانع، ولكنه كان من العسير عليه وعلى غيره أن يلقّنه متعلماً بالطريقة التي كان يُلَقَّن بها من قبل وسط المتعلمين السابقين فهو كتاب لساني أكاديمي موسوعي يصعب على مبتدئين وحتى متقدمين في علم اللساني العربي أن يستوعبوه استيعاباً شاملاً، لأن ما فيه من شواهد وشوارد ونوادر ومسائل نحوية وصرفية وصوتية عامة وخاصة تبقى من اختصاص المعلم للتعمق والتوسع لا قبل لمتعلم لمبتدئ بها.

ومن ثم، فإن طريقة المكودي في شرح الألفية لابن مالك، لا تخلو من ابتكار تربوي جديد قدم بموجبه لطلّابه وحتى للعامة مادة النحو والصرف بمنهجية تربوية لم تعهدها الطرائق التعليمية التي سبقته من حيث تقديم الدرس، وشرحه، وتبسيطه

والتطبيق عليه، كل ذلك بلغة مدرسية عصرية يفهمها القوي والضعيف، وبدرك معانيها الخاملُ والذكيّ، ولئن بدا لك فيها أحياناً غرابة أو غموض، فمن الألفاظ والتراكيب الواردة في المدوَّنة الأصل، وليس في لغة المكودي، لأن شرح مدونة لغيرك في علم لساني أشبه بترجمتك نصاً من لغة إلى لغة، حيث تجد نفسك لا تراوح مكانك بين اللغة الأصل واللغة الهدف.